



ولدت المدن في العالم الاسلامي، كمواها من المدن، في مناطق العالم الاخرى، نتيجة لاجتماع عدد من السكان على شكل جماعات بشرية متعايشة في بقعة معينة من الارض لسبب او اكثر كالخصائص الطبيعية او الاقتصادية او السياسية او العسكرية الاستراتيجية ثم اتسعت تدريجياً بحسب الظروف المؤاتية او الفترات التاريخية، وهذا الامر ينطبق على المدن التي وجدت قبل الاسلام او تلك التي تأسست بعده، سواء بسبب الفتوحات الاسلامية او لأسباب لاحقة غيرها.

فبعد خروج العرب المسلمون في فتوحاتهم من شبه جزيرة العرب إلى العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر، كان هدفهم الرئيسي هو نشر الإسلام وإقامة العدل، وبعد انجاز المرحلة الأولى من الفتوحات وجدوا ضرورة إقامة قواعد عسكرية في الأراضي المحررة لاستكمال مهمتهم، وبذلك بدأت فكرة إنشاء الأمصار أو المدن الإسلامية الأولى، وقد أمدتنا المصادر التاريخية بمعلومات مهمة عن ذلك، وما كتب عن عوامل قيام المدن وما وصف فيما بعد جاء ليوضح جوانب مهمة من الحركة العمرانية والتمدن الإسلامي الذي بدأ ولم ينتهي. وإن المدن الإسلامية صممت وخططت بطريقة تؤكد عمق الفكر العربي الإسلامي في التمدن ورسم خصوصية خاصة بحضارة الإسلام التي ميزتها عن غيرها من الحضارات، لا سيما في العطاء والإبداع ومنه العمراني.

وقد اجتمعت عدة عوامل لنشأة المدن فقد تبدأ بعامل واحد منها أو تتداخل كي تنشأ المدينة الإسلامية وتشكل الخطوة الأولى لتأسيس المدينة وقيامها والتي تعد عوناً في تحديد تلك العوامل ومن أهم تلك العوامل:-

- ١- العامل الطبيعي (الموقع والموضع).
- ٢- العامل الدفاعي (العسكري).
- ٣- العامل السياسي والإداري.
- ٤- العامل الديني.
- ٥- العامل الاقتصادي.
- ٦- العامل الاجتماعي.

أولاً- العامل الطبيعي (الموقع والموضع):

تشترك غالبية المدن الإسلامية في أنها ذات مواقع برية وهذا نابع من كون العرب قد استوعبوا واقع الامتداد والانتشار البري، وتحول ذلك إلى تقليد خاص بهم، وكانت تلك المواقع بعيدة عن السواحل البحرية خوفاً من الأعداء الذين يملكون الأساطيل البحرية القوية لاسيما الدولة البيزنطية في البحر المتوسط، وقد استقر العرب على الاتجاه إلى البر بعد انطلاق الإسلام بحركة الفتوحات الواسعة، وهناك تقليد إسلامي خاص متمثل بكونهم لم يتخذوا من المدن الكبيرة

التي كانت بيزنطية أو فارسية مركزاً لهم وهجروها، فقد انتقل العرب المسلمون من المدائن إلى الكوفة في العراق ومن الإسكندرية بمصر إلى القسطنطينية ومن قرطاجة إلى القيروان ومن أنطاكية في بلاد الشام إلى دمشق وفيما بعد من الكوفة وعواصم العباسيين الأولى إلى بغداد وسامراء مع ضرورة وقوع تلك المواقع المختارة لتلك المدن على طرق النقل الرئيسية وارتبط ذلك بالتطور السياسي والحضاري، فقد اشارت النصوص التاريخية مآثر العرب المسلمين في انتقاء المواقع الصالحة لتشييد المدن حيث كان القائد سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) يرى بعد انتصاره على الفرس في إن ينزل بجندته في المدائن، إلا أنه هناك اسباب دفعت الخليفة إلى رفض هذا الموقع فقد تكرر البلاذري أن وخومة جو المدائن الذي لا يلائم ما اعتاد عليه العرب في الجزيرة العربية من جفاف^(١)، وقد أرسل الخليفة عمر بن خطاب (رضي الله عنه) إلى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) بترك المدائن وأن تنزلهم منزلاً غربياً أن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما صلح الشاء والبعير^(٢).

ويبدو مما تقدم أن العرب حددوا ركنين أساسيين ووضعوا شروطاً لاختيار الموقع وهما (دفع المضار وجلب المنافع) وقد اشار ابن خلدون بقوله: (أن الذي تجب مراعاته في أوضاع المدن أصلاً من مهمان دفع المضار وجلب المنافع^(٣))، فضلاً عن ذلك وضع العرب شروطاً لاختيار مواقع مدنهم منها وفرة المياه العذبة واعتدال المكان وجودة الهواء^(٤).

ويبدو مما سبق أن أهمية مواصفات الموقع والموضع وترجمتها في اختيار مواضع المدن عند إقامة المدينة يكون بتدخل الخلفاء في اختيار المدن الإسلامية.

ثانياً- العوامل العسكرية:

تعد العوامل العسكرية الدفاعية من أهم الأسباب لنشوء المدن فقد اتخذ العرب المسلمون في عمليات التحرير والفتوحات الإسلامية الكبرى ضد الساسانيين من جهة الشرق وضد البيزنطيين من الجهة الشمالية والغربية عدة مراكز عسكرية كانت أول أمرها عبارة عن مخيمات عسكرية غير ثابتة الغرض منها توفير محل لأقامة الجند وإمداد الجيوش أثناء القتال، ففي البصرة عندما أراد القائد عتبة بن غزوان إن يتخذ موضعاً للمقاتلين المسلمين كتب إلى الخليفة عمر بن

(١) أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي: فتوح البلدان، تح: عبد الله انيس، مؤسسة المعارف، (بيروت: ١٩٨٧م)، ص ٢٨٦.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٦.

(٣) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تح: علي عبد الواحد، دار نهضة مصر، (القاهرة: ٢٠٢٣م) ص ٤٢٧؛ الحصري: ساطع، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مؤسسة هنداوي، (القاهرة: ٢٠١٧م)، ص ٤٥٧.

(٤) ابن الربيع: محمد بن أبي الربيع، سلوك الممالك في تدبير الممالك، تح: ناجي التكريتي، منشورات عويدات، (لبنان: ١٩٧٨م)، ص ١٥٢.

الخطاب (ﷺ) فكان جوابه (لا تجعلوا بني وبينكم بحراً أو نهراً)^(٥) بل مصروها إي اجعلوا الموضوع على الحدود وهذا ينطلق من اهتمام الخليفة بتهيئة العامل العسكري وكل ما يخدم عمليات التحصين والدفاع التي تتفاعل مع ميزات الموضوع الدفاعية لذلك وجه القائد عتبة بن غزوان إلى ناحية البصرة وإن يشغل من هناك من أهل الأهواز وفارس وميسان عن عمليات الامداد على المسلمين، ومن هنا فإن الهدف العسكري المتمثل بإشغال الفرس الذين كانوا في قتال مع الجيش العربي في جبهة الكوفة فلا بد للقائد عتبة بن غزوان إن يتخذ البصرة مخيماً للمقاتلين فبعث للخليفة قائلاً له (لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم)^(٦).

لقد كانت الرؤية العسكرية للخليفة واضحة حينما قال للقائد عتبة بن غزوان (اجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريباً من الماء والمرعى واكتب إلي بصفاته)، ولو تمنعا بهذه المميزات فهي مطابقة تماماً مع المخيم العسكري الذي يعد للجند في حالة الفتوح، ويلاحظ أن الكوفة في بداية تمصيرها كان الهدف منها اتخاذها مخيماً عسكرياً لمراقبة الجند حيث وافق الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) على فكرة القائد سعد بن أبي وقاص (ﷺ) أن يتخذ دار هجرة وقيروان^(٧).

لا شك أن العامل العسكري يتصدر العوامل الأخرى في المدن الإسلامية طيلة العصور الإسلامية ويظهر هذا العامل في الأطراف التي هي الثغور العربية الإسلامية وخاصة مع الدولة البيزنطية على نحو مميز في الموقع والوضع والتخطيط والتحصين والحياة العامة، فضلاً على أن العامل العسكري أظهر مدناً تباينت في أحجامها سميت بـ (العسكر) ومنها: عسكر الرملة وعسكر الزيتون في فلسطين وعسكر سامراء وعسكر القرويين وعسكر مصر وعسكر المهدي أي (رصافة بغداد)، وقد اختصت هذه المدن بأنها معسكرات جيش ولأنها مدن عسكرية أطلق عليها العسكر، وتحولت القلاع إلى مدن طيلة التاريخ العربي الإسلامي ولاسيما في بلاد الشام والجزيرة الفراتية زمن الحروب الصليبية، وقد صنف المؤرخون المدن العسكرية الإسلامية إلى أربعة اصناف وهي (الثغور، الأربطة، العواصم، المعسكر)^(٨).

(٥) ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، (بيروت: ١٩٧٧م)، ج ١، ص ٤٧٣.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٣٦؛ ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣١.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٨٤.

(٨) العميد: طاهر مظفر، اصناف المدن العسكرية الإسلامية عند المؤلفين العرب، مركز احياء التراث العلمي، (بغداد: ١٩٨٩م)، ج ١، ص ٢.

ثالثاً- العوامل السياسية والإدارية:

تعد العوامل السياسية والإدارية من أبرز العوامل في نشأة المدن واختيارها، فمثلاً إن التطور السياسي عند قيام الدولة العباسية خلق محاولات ناجحة لتنظيم مراكز إدارية جديدة لغرض حماية الدولة وتأمين مصالحها، لذا فقد أنشأ العباسيون مدن استراتيجية كهاشمية الكوفة وهاشمية الانبار وبغداد^(٩)، ولقد كان إنشاء الرصافة والكرخ مراكز استيطانية مجاورة لمدينة السلام في سبيل تحقيق سياسة سعى إليها المنصور لتأمين حكمة، إن تطور الوظيفة السياسية لمدينة بغداد جاء نتيجة لتوفر عوامل موقعيه تطل فيه على العالم الخارجي وأصبحت لها منطقة نفوذ تجاوزت حدودها بسبب النشاط الاقتصادي والسياسي والعمراني لها وبالرغم من أهمية العامل السياسي لمدينة بغداد فقد تفاعلت معه وبشكل عضوي عوامل أخرى انعكست على تخطيط المدينة وبنيتها الوظيفية ومنها العامل الإداري الذي ظهر في إقامة مدينة واسط بين البصرة والكوفة لتكون مقراً للإدارة والتي أنشأها الحجاج سنة (٨٣هـ / ٧٠٢م)، فقد أشار بشتل إن الحجاج قال: (اتخذ مدينة بين المدينتين يعني الكوفة والبصرة وأكون بالقرب منهما، أخاف إن يحدث في أحد المدينتين حدث وأنا في المصر الآخر) فمر بواسط القصب فأعجبته فقال: هذا واسط المصريين ، فكتب الى عبد الملك بن مروان ليستأذنه في بناء مدينة بين المصريين فأذن له^(١٠)، وبذلك فإن العامل الإداري يعد سبب في انشاء المدن لدى الحجاج من خلال اتخاذه موضع واسط بين البصرة والكوفة لتكون مقراً لإدارته حيث بنى مدينة واسط وأقام بها^(١١)، وكان الأمراء الذين تولوا على حكم العراق بعد الحجاج يقيمون بواسط أيضاً.

وفي تجربة العراق الحضارية العربية يندر ان تقام مدينة لسبب سياسي- إداري الا وتبوء المرتبة العاصمة مما ينعكس على مخططها العام النابع من وظائفها، ومن الأمثلة التي تعكس الارتباط الجلي بين الوظيفة (السياسية- الإدارية) والدور العاصمي في الإدارة هو التنقل من عاصمة إلى أخرى^(١٢).

(٩) الموسوي: مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأت وتطور المدن العربية الاسلامية، دار الرشيد، (العراق: ١٩٨٢م)، ص ١٥٩- ١٦٠.

(١٠) بجشل: اسلم بن زرارة، تاريخ واسط، تح: كوريكس عواد، عالم الكتب (بيروت: ١٩٦٧م)، ص ٤٣.

(١١) بجشل: اسلم بن زرارة، تاريخ واسط، تح: كوريكس عواد، عالم الكتب (بيروت: ١٩٦٧م)، ص ٤٣؛ المعاضيدي: عبد القادر، واسط في العصر الاموي، دار الحرية للطباعة (بغداد: ١٩٧٦م)، ص ٢٠٦.

(١٢) الاشعب: خالص، المدينة والتحضر، فصل عن كتاب حضارة العراق، تأليف نخبة من الباحثين العراقيين، (بغداد: ١٩٨٥م)، ص ١٦٥.

وقد ازداد اثر العامل السياسي والاداري بعد توسع مساحة الدولة العربية الاسلامية فأصبح لعامل وحدة الامة والسيطرة على ربوع الدولة أثر في غاية الاهمية وهذا العامل يفسر عملية نقل العواصم في اكثر من حال.

رابعاً- العامل الديني:

تعتبر العلاقة بين الدين والمدن علاقة قديمة وتؤدي في الغالب إلى مراكز مدنية أنشأت خصيصاً لهذا الغرض، ولهذا فإن الدين يعد عاملاً رئيساً في نشأة كثير من المدن وهو ليس حصراً على الإسلام بل امتد من اقدم العصور وفي كل الحضارات، ويرتبط إنشاء المدن في الدين الإسلامي على نحو واضح، لأنه بجوهره وتشريعاته يشجع على الحياة الحضرية فأركانها من صلاة وصيام وحج ترتبط بحياة الجماعة وفي المدن المستقرة، وأن الإسلام هو دين المدينة، وبُنيت كثير من المدن لتتسمج مع حاجات المجتمع الحضري ويعد العامل الديني وما زال العامل المهم في بناء المدن وقيامها فوجود المساجد الجامعة في المدن التي كونت الصفة الرئيسية للمدن الإسلامية وتركز في وسط المدينة، وتكونت المدن حول المسجد الجامع ويتحدد موضع المدينة من خلال المسجد الجامع ودار الامارة، وهذه النواة كونت مدينة من أكبر المدن الإسلامية وظهرت حولها المساكن والأسواق والخدمات وبهذا الشكل استطاعت المدن الدينية أن تنمو وتتطور وتتحوّل إلى مدن للتجارة والصناعة والثقافة بمرور الزمن^(١٣).

فضلاً عن ذلك هناك العديد من المدن التي كانت أسباب نشأتها ووظائفها الرئيسية هي الدينية كمكة والمدينة المنورة وتونس وفاس، إذ يعد العامل الديني (القيمي) القيمة الاجتماعية والثقافية والدينية أسهمت جميعاً بفاعلية في بناء المدن، ويؤثر هذا العامل في بنية المدينة وشكلها فكل الخدمات والوظائف تتمحور حول العامل الديني الذي يمثل المحور الوظيفي والتخطيطي والمعماري في المدينة أما اذا كان بشكل غير المباشر فيتمثل بإقامة العديد من الخانات والأسواق والمطاعم وأماكن إيواء القاصدين إليها سواء في مواسم الحج إلى مكة والمدينة أو الزيارات إلى المدن الإسلامية^(١٤).

خامساً- العامل الاقتصادي:

يعد العامل الاقتصادي من العوامل الرئيسية والذي ادى دوراً كبيراً في نشأة وتطور المدن الإسلامية، وغالباً ما يراعى اختيار المدينة من حيث ملائمة ظروف الأنشطة الاقتصادية المختلفة كالزراعة والصناعة والتجارة وتفضل المواقع الغنية بترتيها الوفيرة بمياهها والملائمة في مناخها والتي اشار الماوردي إليها قائلاً أن من شروط انشاء المدن والامصار هي:

١ . إمكانية الميرة المستمدة والمستمرة.

(١٣) الموسوي: العوامل التاريخية، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(١٤) الزركاني: خليل حسن تخطيط المدن الإسلامية، دار ومكتبة قناديل، (بغداد: ٢٠١٦م)، ص ١٧.